مُقَدِّمَة

obeikandl.com

اقتربت مطالع القرن العشرين وأبناء القرن التاسع عشر يحسبون أنهم مقتربون من عصر خامل الى عصر يشبهه فى خموله ، وكانوا قد عبروا الأعوام العشرة الأخيرة من القرن وهم يمرون بها مرور الملل وقلة الاكتراث : ركود لا يستغربونه لأنهم أطلقوا عليه كلمة « آخر القرن » Fin de Siècle كما نقول نحن فى اللغة العربية « آخر زمن » ونفسر به كل فعل منتظر على غراره ومن معدنه : معدن الاسفاف والابتذال ، فلا اكتراث له ولا غرابة فيه ، لأن الشىء من معدنه لا يستغرب ، كما يقال ويعاد .

وليس أدل على جهل الناس بغدهم القريب من هذه الغفلة فى نهاية القرن التاسع عشر عن ضخامة القرن العشرين بين قرون التاريخ القديم والحديث منذ عرف التـــاريخ ، فلم يكد هذا القرن ينتصف حتى التفت العالم من جميع أركانه وأقطاره الى هذا القرن الذى خيل اليه أنه بقية العكارة من أعقاب التاريخ الأخير ، فاذا هو عصر العصور فى حوادثه وفى مكتشفاته ومخترعاته ، وفيما يتوقع بعده من جلائل الآمال . نعم ، وجلائل الأهوال .

حربان عالميتان من عشرته الثـــانية الى عشرته الرابعة ، واقتحـــام للفضاء ، وفتح للقمقم عن مارد الطبيعة الأكبر ، وهو القمقم الذى يحتويه أصغر ما فيها من ذرات لا تدركها الأبصار .

هل تعجل الانسانية الى النصر على الطبيعة أو تعجل الى الدمار على يدى الانسان بما كشفه من أسرارها ؟ وهل اقترب الانسان حقا من

الحرب التى تختم الحروب فلا حرب بعدها ولا محاربون ، أم هو يقترب شيئا فشيئا من يوم النصر على الطبيعة وعلى ما فى طبيعته هو من بوائق الشر والدمار ؟

وذهبت السكرة وجاءت الفكرة : ذهبت نشوة الفتح والانتصار على المارد المكنون فى ذرات المادة وانجلت المفاجأة عن حساب طويل لهذا الفتح المبين ، بل حساب عسير .

ماذا فى وسع العلم أن يهب لنا من علانيته وسره ؟ ماذا عنده من الوعد وماذا عنده من الوفاء ؟ وماذا فيه من الخير المأمول ؟ بل ماذا فى الخير المأمول من محذور يتستر وراءه النفع المنظور ؟

ان غلبة الانسان على الطبيعة سوف تؤتيه الغلبة على السقم والوباء، وسوف يزداد الناس ببركة العلم فماذا عند العلم لهؤلاء الناس من الأزواد ومن الشواغل والأعمال ؟ أعنده الكفاية لهم من القوت والمأوى أم هو مرسلهم الى عالم يتغالبون عليه ثم يلتمسون الغلب بذلك السلاح الجديد : ذلك السلاح المبيد ؟

وعاد الباحثون الى نذير « مالثوس » يدرسونه وينقدونه وينقصون منه أو يزيدون عليه . فوضح لهم أن نذير الأمس قد أصاب فى كل شىء الا فيما اعتمد عليه من معلومات وأسانيد . ولم يخطىء حين أنذر بالخطر من زيادة الأحياء على الكفاية فى الأرض من الطعام ، ولعله قد ذكر بعض المخاوف ونسى بعضها الذى توارى عنه فلم يبلغ فى زمنه مبلغ الخطر الملموس ، وهو زيادة الآلات والأدوات على ما يلزمها من غذائها المدخر فى الأرض ، وهو مناجم الوقود .

ولجأ الباحثون الى نبوءاتهم يستخبرونها عن الغد المخبوء قبل نهاية القرن العشرين ، ولكنها نبوءات تتسم بطابع القرن وصبغة العلم

والصناعة ، كأنها نبوءة المتحدث عن سيار فى السماء أو فى الأرض ، يعرف مداره ويعرف كم يدور .

نبوءات أقرب الى التقديرات والاحصاءات . ليست من نبوءات الطوبى ولا من نبوءات الأحلام ولا من نبوءات العصـــور الذهبية ، ولكنها أشبه بأرصاد الفلك . لو لم يكن فيها شيء من الغيب المجهول قد يخطيء فيه الحساب .

ماذا عند هذا العصر — عصر الصناعة — من وعود ؟ وماذا من هذه الوعود حقيق أن يتبعه الوفاء ؟ وماذا يحول دون وفائه بوعوده مما يقع فى الحساب . ومما يقع وراء كل حساب .

هذه هى الأسئلة التى تدور على جوابها فصول هذا الكتاب ، ونرجو أن نوفق للاجابة عنها غاية ما تلهمنا ظواهر الأمور ، وغاية ما نهتدى اليه بهداية تلك الظواهر ، وهداية الأمل المصدوق .

وسنحاول أن نجيب عنه جوابين متلاحقين لا متقابلين ولا متناقضين ، يضيف أحدهما الى الآخر ، ولا يزحزحه عن مكانه ليلغيه أو يطغى عليه .

فمن حيث انتهى بالقرن العشرين تطوره الصناعى يبتدىء النظر الى ما يليه من الممكنات وما يعترض تلك الممكنات من العوائق والعراقيل ، وهذا هو الشطر الأول من الكتاب الذى نعول فيه على خبراء الصناعة حيث بلغت الصناعة غايتها واستعدت للمضى فى تقدمها الى ما بعد تلك الغاية ، فى حدود القرن العشرين وفيما يليه ، وسننقل فى هذا القسم خلاصة كافية للمشكلة التى أحدثتها الصناعة والمشكلة التى تعالجها الصناعة ، ومدارها على تقدير سعة الأرض من المئونة ومن السكان ، وعلى ما يشتبك بذلك من قضايا السلام وقضايا السلاح ، وبخاصة فى القرن العشرين .

ونتنقل بعد العرض الموجز لتقديرات الخبراء الى الشطر الثانى من الكتاب — شطر التعقيب والمراجعة فنأخذ فيه بحق العلم الذى تحراه أولئك الخبراء الثقات ، ونضيف اليه واجب العلم الذى لا يسقط عنه ولا يخليه منه الحفاظ على حقه . فمن واجب العلم أن يفرض وأن يستكشف ، وأن يجمع بين أشتات اليقين كلما وسعه أن يجمعها الى فكرة مقبولة تهدى الى مزيد من اليقين ، ومن واجبه أن يفتح أبواب الاحتمال فلا يغلق منها بابا يفضى الى المجهول ، ويربط بين الماضى والمستقبل بسبب موصول ، وعلى أضواء هذا الواجب العلمى ننظر الى مشكلات الانسانية ، والى أكبرها فى القرن العشرين مشكلة الصناعة ، لنقابل بين ماضيها وحاضرها ونحاول أن نضعها فى مكانها من تاريخ الانسان ، هل هى فلتات مبعثرة فى غياهب من الفوضى وأخلاط من الطوارىء والمصادفات ، أو هى سلسلة متلاحقة نتتبعها — أو نتتبع المعلوم من حلقاتها — فنفهمها على اتصال بين ماضيها وحاضرها ، ثم نفهمها على اتصال بين حاضرها وما يليه من لواحق الغد المنظور ؟

والذى نفرضه — على أساس الفرض العلمى — أن المقابلة بين مشكلات الانسانية وبين أدوار الصناعة فى تاريخها تسفر عن معنى يفهم ، ولا تتيه بالذهن فى فراغ مبهم خلو من كل معنى مجرد من كل نسق . فمشكلات الانسانية جزء من معالم الطريق لم ينفصل عن فتوحها وأطوار انتصارها وارتقائها ، والصناعة — منذ وجدت الآلة البدائية — هى النسمة الأولى التى غيرت بين ملامح الحيوان الأعجم وملامح الحيوان الناطق منذ أقدم الأزمان ، وعلى هذه الصورة لا ينقطع المستقبل ولا تزال الصورة آخذة فى التمام على استقامة واطراد ، وان تخللتها الفجوات والظلال .

ودعوانا التى نؤكدها ولا نتردد فى توكيدها أن نظرة التفاؤل والرجاء الى الغد قائمة على أسبابها التى توازن أسباب التشاؤم والقنوط ، وان القول بعبث التاريخ أصعب دليلا من القول بمعنى التاريخ ، واننا نختار معناه — على بصيرة بينة ، دون معانيه التى يؤثرها المتشائمون القانطون ، وبحسبنا منه أن يكون معنى واضح المدلول ، أسبابه التى تعززه أوضح من الأسباب التى تنفيه .

obeikandl.com